

مسلم بن عقبة المري

أعلام القادة

القائد مسلم بن عقبة المري

هو مسلم بن عقبة بن رباح المري، أبو عقبة: قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي. أدرك النبي ﷺ وشهد صفين مع معاوية، وكان فيها على الرجال. وقلعت بها عينه.

وولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذي أرسله للانتقام من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله، فغزاها وأذاها وأسرف فيها قتلا ونهباً (في وقعة الحرّة) فسماه أهل الحجاز (مسرفاً) وأخذ ممن بقي فيها البيعة ليزيد، وتوجه بالعسكر إلى مكة ليحارب ابن الزبير، لتخلفه عن البيعة ليزيد، فمات في الطريق بمكان يسمى المشلل. ثم نبش قبره وصلب في مكان دفنه (١).

سبب معركة الحرّة:

كان الأمر قد اشتد على يزيد بن معاوية حين علم بأن بني أمية في المدينة محاصرون في دار مروان بن الحكم، فأراد أن يخلصهم من هذا الحصار قيل أن يقتلوا أو يحل بهم مكروه - وكانوا ألف رجل - فعز عليه أن يقتل هؤلاء، وفي سلطانه دون أن يقدم لهم عوناً فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بني أمية، ويرد هؤلاء الناس إلى الطاعة وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله ابن زياد ليرد أهل المدينة إلى الأهل الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت ثم استقر الرأي على إرسال مسلم بن عقبة المري.

(١) الزركلي، ٢٢٢/٧.

ولما اجتمع الجيش، وهمّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة فقال له يزيد: ادع القوم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً، ثم أكف عن الناس، وانظر إلى علي بن الحسين فاكف عنه، واستوصي به خيراً، وأدن مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وأمر مسلماً إذا قرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكوني^(١).

ركب مسلم بن عقبة فرسه واستعرض جيشه الذي سيحارب به أهل المدينة، فجعل على هل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكوني، وعلى أهل الأردن حبيس بن دلجة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامي، وشريك الكناني، وعلى أهل قسرين طريف بن الحساس الهلالي، وعليهم جميعاً مسلم بن الوليد بن عقبة المرّي الغطفاني، وسار مسلم إلى المدينة فوجد بني أمية وقد أخرجوا منها، وساروا في اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع في المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة، قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألا يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدواً، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما ورائهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضباً شديداً، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذي دلّه على الخطة التي يجب اتباعها في حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق في الجنوب منها، يواجه أهل المدينة، في مكان يسمى الحرّة، وتأتي الشمس أمام جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم

(١) البداية والنهاية، ١١/٦١٧، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣٢٣/٢.

فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية.

وفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة ٦٣ هـ وقعت المعركة المشؤومة، فوجه مسلم خيله نحو أهل المدينة والتقى الجيشان، وحمل عبد الله بن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيل، وانهزموا حتى انتهوا إلى مسلم، فنهض مسلم بمن معه وقاتلوا قتالاً شديداً، وانكشف أهل المدينة من كل جانب وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منه أن يجمع الفرسان ليقاتلوا معه وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبة ليقتله، فأمر بن الغسيل أن يجتمع الفرسان حول الفضل، وحمل الفضل بهم على أهل الشام فانفرجوا وجثت الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم فقتل صاحبها وهو يظنه مسلماً، وكان الذي قتله الفضل غلاماً لمسلم اسمه رومي وأخذ مسلم الراية ونادى في جيشه يحضهم على القتال وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: يا أهل الشام، هذا هو قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم، فبِح الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبي، وأغيطه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء، وأن تجمروا في أقاصي الثغور، شدوا مع هذه الراية، ومشى برأيته، وشدت الرجال أمام الراية، وصرع الفضل ابن عباس بن ربيعة وما بينه وبين أطناب مسلم إلا عشر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نعيم العدوي في رجال من أهل المدينة كثير، ثم أن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منه، وركب مسلم بن عقبة فرساً له، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها، ولا

أكثرها عدداً، ولا أوسعها بلداً، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر. وأمر مسلم أجدر رماته أن يصوب رمية نحو ابن الغسيل فقال ابن الغسيل: علام تستهذنون لهم؟ من أراد التعجل فليازم هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فقال الغدو إلى ريكم. فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعه قريري عين، فنهض القوم واقتتلوا أشد قتال رأي في ذلك الزمان، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه أمامه واحد بعد واحد حتى قتلوا بين يديه وقتل هو وقتل معه أخوه.

وانتهت المعركة لصالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة ماحقة، قتل فيها خلق كثير من القادة ووجوه الناس ولم يخف مروان أسفه على ابن حنظلة ومحمد بن عمرو بن حزم، وإبراهيم بن نعيم بن النحام، وغيرهم، بل كان يثنى عليهم ويذكرهم بأحسن صفاتهم التي اشتهروا بها، وكان القتل ذريعاً في المدنيين وقد شبهتهم الرواية بنعام الشرد، وأهل الشام يقتلونهم في كل وجه، وقد قتل في هذه المعركة، عدد من الصحابة رضوان الله عليهم ويشهد لذلك ما ذكره سعيد بن المسيب حينما قال: وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان - فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية - يعني الحرّة - فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طبّاخ^(١)، ولقد ورد المؤرخون قوائم بأسماء قتلى الحرّة ومن أصيب من قریش والأنصار ما بين ثلاثمائة رجل وستة رجال، والحرّة سبعمائة رجل من حملة القرآن وكان معهم ثلاثة أو أربعة

(١) المراد لم تبق في الناس من الصحابة أحداً فتح الباري، ٣٧٥/٧.

من أصحاب رسول الله ﷺ.

لقد اشتهر أن مسلم بن عقبة المري، أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا ثلاثة أيام من شهر ذي الحجة ينتهبون المدينة حتى رأوا هلال محرم، فأمر الناس فكفوا، وذلك لأن معركة كانت لثلاث يقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة وتعتبر رواية نافع مولى بن عمر هي أصح رواية نصت على حدوث الإنتهاب فقد قال: .. وظفر - مسلم بن عقبة - بأهل المدينة وقتلوا وانتهبت المدينة ثلاثاً^(١).

وقد أطلق العنان لبعض الكتاب لرغباتهم وأهوائهم وذكروا أنه حدث إنتهاك لحرمان بعض نساء المدينة، ولم يستندوا في ذلك إلى إي دليل والروايات المتعلقة بالاغتصاب لا يمكن الاعتماد عليها.

إن انتهاك أعراض نساء المدينة لا أساس لها من الصحة، وأنها روايات جاءت متأخرة، ويدافع حزبي بغيض، يتخذ من الكره والتعصب ضد التاريخ الأموي دافعاً له وتهدف إلى إظهار جيش الشام، الذي يمثل الجيش الأموي جيشاً بربرياً لا يستند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقية، وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأموي فقط بل إنَّ الخطورة التي يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم من مجرد اتهام الجيش الأموي، إلى اتهام الجيش الإسلامي الذي فتح أصقاعاً شاسعة في تلك الفترة^(٢).

نفذ مسلم وصية يزيد بحذافيرها، فلم يفاجئ أهل المدينة بالقتال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، ولما مضت الثلاث، حاول إقناعهم وألح عليهم أن يقبلوا السلام، وأن يكفوا عن القتال، ولكنهم سبوه وشتموه وردوا عليه أمانه، ويا ليت مسلماً تروى واستمر في حصار المدينة

(١) الطبقات الكبرى، ٣٨/٥، بإسناد حسن.

(٢) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣٣٢/٢.

المحرمة، ولكن غلبه حبه لسفك الدماء، فدخل المعركة وأنزل بأهل المدينة روعاً عظيماً، وأعمل فيهم السيوف وقتل خيارهم، وشتتوا شملهم ولم ينج منهم إلا أسير أو هارب إلى مكة لينضم إلى ابن الزبير وقد أسرف مسلم في قتل المسلمين حتى بعد انتهاء المعركة فقتل رجالاً خرجوا من المعركة سالمين، ولم يكن له ليقتلهم وقد انتهت المعركة، واستسلمت المدينة، ولكن غلب عليه طبعه، وجرى في عروقه دم الشر الذي فطر عليه، فكان يقتل الرجل لمجرد أن يقول إنه يبايع على كتاب الله وسنة رسوله، أو يبايع على سنة أبي بكر وعمر، وبالطبع لم يكن هذا أبداً مبرراً لسفك دماء وإزهاق أرواح، ولكنه الظلم والعسف والتجبر والطغيان.

وفي أول المحرم من عام ٦٤ هـ بعد فراغ مسلم من حرب المدينة. سار إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير، ولما بلغ ثنية هزّش^(١)، بعث إلى رؤوس الأجناد فجمعهم فقال: إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكوني ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعا به فقال: انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز بن الزبير قبل ثلاث، ثم قال: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله أحب إليّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي. ثم مات قبحه الله ودفن بالمثثل^(٢).

انظر إلى شدة جهله وحماقته وكيف كان يعتقد أنه يتقرب بقتل هؤلاء إلى الله، وأنه يزداد بقتلهم قربي منه - سبحانه - والناظر في

(١) هزّش: مكان مرتفع من طريق مكة: قريبة من الجحفة.

(٢) بين مكة والمدينة.

دعائه يستشعر الأسباب التي جعلت مسلماً يدير المعركة بشراسة، ويسرف في دماء المسلمين من غير وازع ولا رادع فقد كان مسلم يعتقد أن قتل أهل المدينة قربي إلى الله، فأسرف في القتل وكان يؤمن بأن قتلهم هو السبيل إلى الجنة، فأمعن في سفك الدماء ولو أن الأحمق الجاهل الذي كان حريصاً أشد الحرص على طاعة أمير المؤمنين ولم يحرص قط على طاعة الله، وكان يكره معصية أمير المؤمنين عند الموت، بقدر ما كان يكره طاعة الله في عبادته، لو أنه فقه أن زوال الدنيا عند الله أهون من سفك دم امرئ مسلم، ولو أنه علم أن ما فعله أهل المدينة لا يبيح دماءهم ولا تستباح أموالهم لو أنه علم ذلك لكان يكفيه من إدارة المعركة القدر الذي يخضع الناس ليزيد^(١).

مواقف من حياته:

نصف رأسه أبيض ونصفه أسود:

قال أبو معشر: أقبلت من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلل عند قبر مسلم إذا رجل من أهل الشام ممّن حضر وقعة الحرّة يسايرني، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عقبة. فقال: أحدثك بالعجب؟ كان مع مسلم رجل من أهل الشام يقال له أبو الغراء فإذا نصف شعره أسود ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحرّة جئت قُبَاء فدخلت بيتاً فإذا فيه امرأة جالسة معها صبي لها وليس عليها شيء إلا درع وقد ذهب بكل شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله لقد بايعت رسول الله ﷺ، على أني لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي. قال: فأخذت برجل الصبي فضربت به الحائط. فنثر دماغه، فخرجت

(١) الأمويون بين الشرق والغرب نقلا عن الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداخيات الإنهيار، ٢ / ٣٣٥.

فإذا نصف رأسي أبيض ونصفه أسود كما ترى^(١).

لأقتلنك قتلة يتحدث بها العرب:

عن ابن الأعرابي قال: قال مسلم بن عقبة لرجل: والله لأقتلنك قتلة يتحدث بها العرب. فقال له: إنك والله لن تدع لؤم القدرة وسوء المثلة لأحدٍ أحقّ بهما منك^(٢).

إنه إذن لشقي:

وقال عوانة ويزيد بن عياض أن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة فنزل به الموت بنثية هرشا أو يقفا المشلل فدعا حصين بن نمير السكوني فقال: يا برذعة الحمار، إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت، ولولا ذلك لكان الوالي حبيش بن دلجة فإنه أولى بذلك منك. احفظ عني ما أقول لك: لا تطيلن المقام بمكة، فإنها أرض جردة محتدمة الحر، ولا تصلح النواب بها، ولا تمنع أهل الشام من الحملة، ولا تمكن قريشاً من أذنك، فإنهم قوم خدع. ليكن أمرك الوقاف ثم التقاف ثم الانصراف. ولنن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذن لشقي^(٣).

من كلامه:

- خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام:

أقبل مسلم بجيشه إلى المدينة فحاصرها من جهة الحرة ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق وأجلهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ونشبت الحرب بين الفريقين وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشام

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوي، ص ٣١.

(٢) ثعلب، مجالس ثعلب، ص ٩١.

(٣) الميرد، التعازي والمراثي، ص ٦٢.

فانكشفوا وقتل صاحب رايتهم فأخذ مسلم الراية ونادى

يا أهل الشام أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم
وأن يعزوا به نصر إمامهم قبح الله قتالكم منذ اليوم ما أوجعه لقلبي
وأغيطه لنفسي أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا العطاء وأن
تجمروا في أقاصي الثغور شدوا مع هذه الراية ترح الله وجوهكم إن
لم تعنوا.

- خطبة مسلم يحرضهم :

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى
دنوا منه وأخذ مسلم يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول يا أهل
الشام إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها و لا أنسابها و لا أكثرها
عددا و لا أوسعها بلدا ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر
على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم وإن
هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم فتموا على
أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من
النصر والفلج^(١).

* * *

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ / ٣٢٧ - ٣٢٨.